من تراب الطريق! (٢٣٩)

بليّة مضحكة أخرى ! (*)

هذه بليّة أخرى يضحك شرها، متصلة ببليّة الأمس المضحكة التى ملأت سطور عمود الأمس، وملأت قلوبنا وعيوننا بكاء على حال الأمة العربية ! .. فى ظُلُمات هذه الأحزان يُلتمس البدر، والبدر المأمول لا يمكن أن يأتى إلاّ من النخبة المثقفة العارفة القادرة على الإمساك بالزمام وقيادة العقل الجمعى والفردى إلى " النور" الذى يشق به طريقه وسط الظلام، ويأمن الزلات، وأباطيل المبطلين، وطلقات الطائشين، وسفاهات صُناع ومحترفى " الأونطة " التى صار لها هى الأخرى قادة وزعماء وأمراء .. وربما نسمع أحدهم ينادى بأنه الزعيم الأوحد والوطنى الأوحد والبصير الأوحد والمحنك الأوحد والأشوس الأوحد .. فيه وحده الأمل، وعليه وحده معقد الرجاء !

هناك تحولات أراقبها وفى الصدر ضيق شديد قد ينطبق عليه : " إن نكتم ينشق الصدر، أو ننطق ينفتح القبر " ! .. هذه التحولات أصابت بالتحديد صحيفتين صارتا معنيتين يوميا بتخصيص ركن دائم مُحلّى بالصور والمانشتات لزيارات خزفية تقطع طول البلاد وعرضها حتى النوبة، يُستقبل فيها صاحب الركن أو المقرر الدائم استقبال الزعماء والأبطال بما ينافس - إن لم يزد - عمّا كان يُستقبل به مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول ومصطفى النحاس ! .. صاحب الركن مهما كان التعاطف مع محنة سجنه سلفاً فى جناية تزوير توكيلات، سواء كان

(*) المال ٢٠٠٩/٤/٧

التزوير ملفقاً عليه، أم تعنتت السلطات فى كشفه وملاحقته فيما كانت تكتفى بالتلويح إليه تلويح العارف المتابع الساكت عنه إلاّ أن تبدر بادرة غير مرضية تدعو لفتح ملفه ! .. صاحب الركن لم يكن فى يوم من الأيام زعيماً مصرياً مشهودًا أو غير مشهود، ولا عالمًا من العلماء الأفذاذ، ولا مهنياً من المهنيين المتميزين الذين لا يشق لهم غبار، ولا هو صاحب إمكانيات فذة .. ولم يرصد أحد خدماتٍ جليلة قدمها للوطن، اللهم إلاّ إذا كان الترشح للرئاسة - وقد فعلها عديدون غيره ! - عملاً مغواراً لم تأت به الأوائل ولن يأتى به الأواخر، مع أن الحض والتشجيع على الترشح كان آنذاك جارياً على قدم وساق مقرونا بمنح " وهبة " تشجيعية لتكاليف الترشيح .. قدرها نصف مليون جنيه أى خمسمائة ألف جنيه بالتمام والكمال !

لم تكن الدولة ضيقة إذن بترشحه للرئاسة ولا بترشح سواه، بل كانت الدولة تشجع وتحض على الترشح ليكتمل المشهد التنافسى الذى كان مقطوعاً بنتيجته المؤكدة التى يعرفها الأعمى والبصير، ويعرفها المترشحون أنفسهم، الذين عرفوا أنهم ليسوا أهلاً للمنافسة، لدرجة أن تنادى أحدهم - رحمه الله - بأنه سوف يعطى صوته على الرئاسة لمن خاض الانتخابات لمنافسته !

ليس هذا تجريحاً ولا تهويناً من أمر المرشحين أو من شأن صاحب الركن، فوالده - رحمه الله - زميل محترم وصديق عزيز جداً، وإنما أردت فقط أن أوضح نقطة : لماذا هذا المقرر أو الركن اليومى الدائم بالصحيفتين، المُحلّى بالصور والعناوين، للنفخ والتكبير والتضخيم، يتابع كل شاردة وواردة، حتى البسمة والتكشيرة وربما الكحة، فى افتعال لا يفوت القارئ، ومع ذلك لا يتردد الركن اليومى الدائم فى هذا الإلحاح الغريب الذى أعيانى فهمه والبحث عمن وراءه !!

ظنّى أن صاحب الركن الدائم نفسه، لا يملك إمكانيات ولا أدوات تسخير صحيفتين يوميتين للتخديم عليه بهذا التخديم المفتعل المصطنع،

ومن ثم يظل السؤال مشرئباً عن مصدر وعلّة أو حكمة وغاية هذا التخديم ولأى هدف ؟! .. هل لمعارضة النظام وتقديم رئيس منافس ؟! .. إن مصر مليئة بقامات عالية حقيقية مهيأة بعلمها وكفاءتها وخبراتها وشخصياتها وتاريخها - تصلح لهذه المنافسة، ومن المؤكد أنه لايمكن أن يكون أحد من الناشزين للركن أو المقرر اليومى الدائم - قد صَدَّقَ للحظة أن الجارى التخديم عليه يملك بالفعل ما يؤهله لهذا الموقع الرفيع ومسئولياته الخطيرة !

أيها السادة، إن مصر أكبر كثيرا من هذا الهزل، واعتلاء رئاسة مصر ليس أمراً هينا يُدفع أو يُتصور أنه يمكن أن يُدفع إليه بأى شخص ! .. المشهد الراهن خائب الغرض، خائب المسعى، خائب الهدف، ناتجه الوحيد أنه يساهم بالوعى أو باللاّ وعى فى مزيد من نشر ثقافة "الخيبة " و " الأونطة " !

مصر أغلى وأعز من هذه المشاهد العبثية الهزلية المؤسفة، وَحَرِيّة جديرة بأن نرتفع حاكمين ومحكومين إليها وإلى أمانيها وحقوقها علينا .. من شر البليّة أن السعى الذى نراه - يشد مصر إلى الوراء ! .. إن البضاعة التى أتلفها الهوى كما قال السيد عبد الجواد فى ثلاثية نجيب محفوظ - قد ضربت فى كل باب، ولم يعد هناك أمل إلاّ فى مسعى وأداء النخبة الحقيقية المخلصة .. فهل نقبض على هذا الأمل ؟!